الجمع بين روايتي قالون وورش من خلال متن الدرر اللوامع لابن بري

الأستاذ عماد بن عامر
معهد القراءات الجزائر

الحمد لله الذي أكرمنا بالقرآن، وجعلنا من عنده خيرة ولد عدنان، محمد عليه الصلاة والسلام، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للإنس والجان، وعلى آله وصحبه وزوجه ذوي المكرمات الحسان، وبعد:

فإن علم القراءات من أجل العلوم وأشرفها، لتعلقه بكتاب فاطر السماوات وباريها، وقد اهتمت الأمة الإسلامية منذ صدر الإسلام بهذا الفن، وأولته عناية فائقة، ودونت فيه التصانيف والمؤلفات، فكثرت فيه المتون والشروح والتعليقات..، ولما اختار أهل كل بلدة رواية أو قراءة بعينها، كما اختاروا مذهبا فقهيا يتعبدون الله به، التزموا في سبيل ذلك كتبا ومنظومات مخصوصة، جعلوها نبراسا لهم للوصول إلى المقصد المحمود...

وقد اصطفت بلادنا العزيزة–والمغرب العربي عموما–قراءة نافع، كما اختارت مذهب مالك في الفروع..، ولتحصيل القراءة على أصولها وضوابطها تناقلت الأجيال منظومة مغربية الأصل والتوليف، جمعت أصول القراءة وقواعدها، فتلقاها الناس بالقبول الحسن، وعكفوا على حفظها وشرحها وتدريسها جيلا بعد جيل..، إنها منظومة–أو متن– ابن بري الموسومة بالدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع..

وأحاول في هذا البحث المتواضع أن أقف على الطريقة العملية المثلى للاستفادة

من منهج المتن المذكور في سبيل جمع القراءة، متبعا في ذلك الخطة العلمية التالية:

المبحث الأول: قراءة نافع ومراجعها عند المغاربة

المطلب الأول: مقدمة في اعتناء المغاربة بعلم القراءات، وقراءة نافع على وجه الخصوص لقد عرفت بلاد المغرب العربي على وجه العموم- والجزائر على وجه الخصوص- علم القراءات منذ أمد بعيد، فكانت تدرس هذا العلم في مناطق عديدة من ربوع بلادنا: كبجاية ومنطقة القبائل عموما، وتلمسان وتوات ووهران، وكانت تمنح الإجازات العلمية بالأسانيد المتصلة إلى رسول الله ﷺ.

ومما عرفت به بلادنا: الاهتمام الكبير بقراءة نافع على وجه الخصوص[1]، لارتباط القراءة بمذهب مالك، حيث اعتبرها إمام دار الهجرة سنة أهل المدينة المنورة، كما روى ذلك ابن وهب وسعيد بن منصور عن مالك، وبما أن الجزائر اختارت مذهب مالك في الفروع، تبع ذلك اختيار قراءة نافع المدني، وبذلك عظم ميل أهل المغرب المالكيين إليها، وعولوا في التلاوة عليها، وأكثروا من التواليف والتصانيف في تحقيق أصولها وفروعها وتحريرها، والاعتناء بطرقها وأوجهها، تدقيقا وتمحيصا...

المطلب الثاني: المراجع التي اعتمدها المغاربة في القراءة إن المغاربة عنوا بعلوم الشريعة وعلوم الآلات حفظا وتدريسا وتوليفا، فعكفوا على التبحر في مختلف علومها وفنونها، وقد اشتهر في كل علم وفن تواليف ومصنفات، تحفظ وتشرح وتدرس، فعلى سبيل المثال: يدرس الطلبة في الكتاتيب والمدارس القرآنية متن الآجرومية والألفية وقطر الندى في علم النحو، ويدرسون السلم للأخضري في المنطق، ومتن الأخضري وابن عاشر والرسالة وخليل في الفقه المالكي، وفي علم القراءات والرسم: يدرسون منظومة الجزرية، والخراز) مورد الظمآن في رسم القرآن(، والشاطبية) حرز الأماني ووجه التهاني(، وابن بري، وقد اعتنى علماء المغرب بتدريس هذه المؤلفات وشرحها والتعليق عليها، وتلقينها للأجيال الشغوفة بتلقي علم القراءات[2]..

وقد عرف متن ابن بري شهرة كبيرة في بلاد المغرب، لأنه جمع قراءة

نافع، فقامت كثير من المدارس والمعاهد بتدريسه لطلاب العلم، فعلى سبيل المثال اشتهرت تلمسان ببعض العلماء الذين شرحوه ودرسوه للطلاب، منهم العلامة: أبو الحسن علي الأنصاري المتوفى شهيدا بالطاعون عام 1054هـ، فكان يشرح متن ابن بري، وقد ترك مؤلفا في شرحه، ومحمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842هـ، فقد كانت له حلقة عظيمة يشرح فيها الشاطبية ومتن ابن بري[3].

المبحث الثاني: كتاب الدرر اللوامع لابن بري وطريق الداني .

المطلب الأول: كتاب الدرر لابن بري.

الفرع الأول: التعريف بالكتاب هذا الكتاب العظيم الشأن، الموسوم بالدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع، كما صرح بذلك ناظمه:

سميته بالدرر اللوامـــع

في أصل مقرإ الإمام نافع.

وقد اشتهر بمتن ابن بري، نسبة لمؤلفه، وقد ضمنه قراءة الإمام نافع المدني، كما هو ظاهر من عنوان المؤلف، جامعا بين روايتي قالون وورش من الطريقين المشهورين: طريق أبي نشيط والأزرق، وقد صرح بذلك في مقدمته:

من نظم مقرإ الإمام الخاشع

أبي رويـــم المدني نافع.

إذ كان مـــقرأ إمام الحـرم

ثبت فيما قد روى المقدم

وللـــذي ورد فيه أنـــــه

دون المـــقاريء سواه سنه

إلى أن قال:

نظـــمته محتـــــسبا لله

غيـــــر مفاخر ولا مباه

على الذي روى أبو سعيد

عثمان ورش عالم التجويد

رئيس أهل مصر في الدراية

والضبط والإتقان في الرواية

والعالم الصدر المعلم العلم

عيسى بن مينا وهو قالون الأصم

أثبـــت من قـــرأ بالمدينة

ودان بالـــتقوى فزان دينه.

ولأهمية هذا الكتاب، فقد اعتنى العلماء بشرحه في مصنفات مفيدة، من

بينها[4]:

1- القصد النافع لبغية الناشيء والبارع في شرح الدرر اللوامع، لأبي عبد الله محمد ابن إبراهيم الخراز

2- المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع، لأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي ت876هـ.

3- الفجر الساطع على الدرر اللوامع، لأبي زيد القاضي.

وأشهر شرح له: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع، لأبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المارغني ت 1349هـ.

الفرع الثاني: التعريف بإبن بري

هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الحسن التازي الرباطي، ولد في حدود 660هـ بتازة، تلقى العلوم ببلده ابتداء عن والده، ثم أخذ عن غيره، ومن أشهرهم: أبو الربيع سليمان بن محمد بن حمدون الشريشي ت 709هـ، كان رحمه الله عالما بارعا في شتى العلوم كالتفسير والحديث والفرائض والفقه والعروض والقراءات، ذا نظم عذب، وخط حسن، له تواليف عديدة منها: شرح على وثائق الغرناطي، وابتدأ شرحا على تهذيب البرادعي للمدونة، ومن أهم كتبه: المؤلف الذي بين أيدينا: الدرر اللوامع.

ولي كتابة الخلافة بالمغرب بعدما كان شاهدا عدلا بتازة، وسبب توليه الكتابة أن تلميذه ولي قضاء تازة، فتحرج أن يجلس شيخه ابن بري شاهد عدل، فتوسط له في ذلك، توفي سنة 731هـ بتازة، وقيل بمدينة فاس[5].

المطلب الثاني: الطريق المتبع عند ابن بري

من المعلوم أن كتاب الدرر اللوامع جمع روايتي ورش وقالون عن نافع المدني من طريقي الأزرق وأبي نشيط، وإذا كانت القراءة تنسب لأحد القراء العشرة، والرواية لمن أخذ عنهم ولو بواسطة، والطريق لمن أخذ عن الرواة وإن سفلوا، ثم تأتي الأوجه[6]، فلا شك أن الطرق والأوجه كثيرة ومتعددة..

وقد أخذ الناظم بطريق الأزرق وأبي نشيط، سالكا طريق الداني في التيسير، وتبعه في ذلك الشاطبي في حرز الأماني، دون غيره، كطريق أبي محمد مكي القيرواني، وطريق أبي عبد الله محمد بن شريح، وقد أخذ القراءة عن شيخه أبي

الربيع بن حمدون الشريشي، الذي يعتبر سنده من أعلى الأسانيد المقدمة في القراءة، وقد وقع اختياره على طريق الداني لشدة حفظه وإتقانه[7].

يقول ابن بري:

سلكت في ذاك طريق الداني
إذ كان ذا حفظ وذا إتقان
حسبما قرأت بالجـــميع
عن ابن حمدون أبي الربيع
المقريء المحقق الفصـيح
ذي السند المقدم الصحيح.

التعريف بالإمام الداني:

هو الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمرو الداني الأموي مولاهم القرطبي، ولد بقرطبة سنة 371هـ، ثم انتقل إلى دانية فنسب إليها، وكان معروفا بابن الصيرفي المالكي، رحل إلى المشرق، وطلب العلم بالقيروان ومصر، ثم عاد إلى الأندلس، قرأ بالروايات على عبد العزيز بن خواستي الفارسي، وعلى ابن خاقان، وابن غلبون وغيرهم، كان مجاب الدعوة ورعا دينا، حسن الخط، جيد الضبط، حافظا متقنا متفننا في علوم شتى، كان بحق قارىء الأندلس، وابن عبد البر محدثها، والباجي فقيهها.

ألف كتبا عدة في القراءات، منها: جامع البيان في القراءات السبع، والمقنع في رسم مصاحف الأمصار، ومن أشهرها كتاب التيسير في القراءات السبع، الذي اختصره الشاطبي في قصيدته حرز الأماني ووجه التهاني.

توفي بدانية سنة 444هـ، صلي عليه بعد صلاة العصر، و لم يبلغ نعشه قبره إلا في المغرب، رحمه الله رحمة واسعة[8].

المبحث الثالث: جمع قراءة نافع من خلال متن ابن بري.

المطلب الأول: منهج ابن بري في التأليف

وقد جاء المتن في ثلاثة وسبعين ومائتين بيتا، ابتدأه الناظم بالحمدلة والصلاة على خير البرية على عادة المؤلفين في تصدير مؤلفاتهم:

الحمد لله الذي أورثنا
كـــتابه وعلمه علمنا
حمدا يدوم بدوام الأبـد
ثم صلاته على محمد
أكرم من بعث للأنـــام
وخير من قد قام بالمقام

جاء بختم الوحي والنبوه
لخـــــير أمة من البرية
صلى عليه ربنا وسلمنا
وآلـــه وصحبه تكرما

ثم أبان في مقدمته –وتقع في 32 بيتا–، عن موضوع متنه، ومنهجه في التأليف:

فكان موضوع المؤلف قراءة نافع من روايتي ورش وقالون من طريقي الأزرق وأبي نشيط، وأما منهجه في بيان أحكام الروايتين: فيتمثل في التطرق أولا لأصول روايتي ورش وقالون، وعبر عنه بالمطرد، ثم ثنى بباب الفرش(الفروع)، وهي الكلمات المفردة التي لا تخضع لقاعدة مطردة [9].

قال ابن بري:

فجئت منه بالذي يطرد
ثم فرشت بعد ما ينفرد
في رجز مقرب مشطور
لأنه أحظى من المنثور
يكون للمبتدئين تبصره
وللشيوخ المقرئين تذكره

وقد سلك في منهجه ذكر الخلاف إذا كان موجودا بين الروايتين، فإذا أطلق الحكم أو سكت عنه دل على اتفاقهما في ذلك، قال الناظم:

بينت ما جاء من اختلاف
بينهما عنه أو ائتلاف
وربما أطلقت في الأحكام
ما اتفقا فيه عن الإمام

قال المارغني: "تعرض في هذين البيتين إلى اصطلاحه في هذا الرجز، وحاصله أنه يبين في الغالب ما بين ورش وقالون من الاختلاف عن نافع، والائتلاف– أي الاتفاق في الحكم–، وذلك بأن يسند الحكم لورش وحده، فيعلم أن قالونا روى خلافه كقوله:)أبدل ورش كل فاء سكنت(، ونحوه، أو يسند الحكم لقالون وحده، فيعلم أن ورشا روى خلافه كقوله:)واقصر لقالون يؤده معا(، ونحوه، أو يسند إليهما مختلفين كقوله:)وزاد عيسى الظاء والضاد معا وورش الإدغام فيهما وعى(، أو يسند الحكم إليهما متفقين كقوله:)واتفقا بعد عن الإمام في سين سيئت بالإشمال، ونحوه، أو يسند الحكم لنافع فيعلم أن ورشا وقالونا متفقان عليه كقوله: فنافع بقصر يرضه قضى، ونحوه، أو يسند الحكم إلى جميع القراء كقوله:

وكلهم رققها إن سكنت "[10].

وبعد المقدمة شرع مباشرة في تبيان الأصول المطردة لقراءة نافع: فتطرق لمباحث التعوذ والبسملة، ثم ميم الجمع، فهاء الكناية، فأحكام الهمز، ثم الإظهار والإدغام، فالنون الساكنة، فالفتح والإمالة، ثم أحكام الراء واللام، ثم الوقف، ثم ياءات الإضافة فالزوائد.

ولما أنهى مباحث الأصول، انتقل إلى أبواب الفرش، وذلك عند قوله في البيت 277:

القول في فرش حروف مفرد

هوفيت ما قدمت فيه من عده

وبعدها، عقد بابين لمخارج الحروف وصفاتها، وكان آخر بيتين في المنظومة قوله:

والغنة الصوت الذي في الميم
والنون تخرج من الخيشوم

فهذه الصفات باختصار

تفيد في الإدغام والإظهار

وهناك أبيات ثلاثة وجدت في بعض نسخ المنظومة بعد قوله:

ثم صلاة الله كل حين على النبي المصطفى المكين.

هذا نصها:

تـم كتاب الـدرر اللوامع
في أصل مقرإ الإمام نافع
نظمه مبتغيـا للأجر
عـلي المعروف بابن بري
سنة سبع بعد تسعين مضت
من بعد ستمائة قد انقضت

فكان بذلك مجموع أبيات المنظومة ستة وسبعين ومائتين بيتا[11].

المطلب الثاني: الطريقة العملية للجمع بين الروايتين على طريقة المؤلف

إذا أراد طالب علم القراءات أن يلم بقراءة نافع جمعا بين روايتي ورش وقالون، عليه أن يسلك منهجا واضح المعالم، يلتزمه تنظيرا وتطبيقا، وأحاول في هذا المطلب وضع منهج تطبيقي سهل مستنيرا فيه بطريقة المؤلف في نظمه، وإليكم هذه الطريقة:

1- إتقان الأحكام العامة للتجويد، كأحكام التعوذ والبسملة والميم الساكنة والمدود..، ولا بأس بالاستعانة بمتن أو رسالة مختصرة، كمتن تحفة الأطفال

للجمزوري.

2- إتقان الرواية الأولى-وهي رواية ورش-أصولا وفرشا على يد شيخ متقن، ومما يسهل الأمر الاستعانة برسالة مختصرة سهلة العبارة لدراسة الرواية نظريا، ويتبع في دراسته النظرية والتطبيقية طريقة المؤلف في ترتيب المباحث والأبواب، فيبتدأ بدراسة مباحث التعوذ والبسملة وميم الجمع...، ولا أجد حرجا في أن يخالف الطالب بعض المباحث..، وهنا قد تطرح إشكالية تأخير باب الصفات والمخارج أو تقديمه، وللعلماء في ذلك مذهبان: فهناك من قدمه كابن الجزري في منظومته، وهناك من أخره كابن بري، وفي رأيي أن الأمر فيه سعة، ولا بأس بتأخيره، على أن يستفيد الطالب من القراءة التطبيقية على يد شيخه، بحيث يقوم له صفات الحروف ومخارجها على وجه العموم، مشيرا إلى بعض الأمور النظرية في هذا الباب، فيأخذ الطالب هذا المبحث تطبيقا، حتى إذا ما وصل إليه نظريا، سهلت عليه مباحثه.

قال ابن الجزري:

وليس بينه وبين تركه

إلا رياضة امرىء بفكه

3- إذا أتقن الطالب رواية ورش، وقرأ على شيخه ختمة انتقل إلى الرواية الثانية المكملة للقراءة، فيدرس أصول وفرش رواية قالون متبعا طريقة المؤلف، وهنا لا بد من الاطلاع على شرح ابن بري ودراسته، ومن أحسنها النجوم الطوالع للمارغني، ولا بأس بالاستعانة برسالة صغيرة تضمنت الرواية كالجوهر المكنون، وعلى الطالب في هذه المرحلة أن يقيد الخلافات والفروقات في باب الأصول والفرش بين الرواية الأم -ورش-، والرواية الثانية -قالون-، في مصحف ورش، بحيث تكون رواية ورش هي الأصل والمرجع، مثال ذلك:

أ-نقل عن ورش بين السورتين: البسملة والسكت دون بسملة،والصلة دون بسملة والراجح عنده الوصل، ونقل عن قالون إثبات البسملة بين السورتين إلا بين الأنفال وبراءة[12]، فيقيد على الهامش إثبات البسملة عند قالون، قال الناظم:

قالون بين السورتين بسملا

وورش الوجهان عنه نقلا

واسكت يسيرا تحظ بالصواب

أوصل له مبين الإعراب.

ب–نقل عن نافع في هذه الكلمات: ردءا، آلان، عادا الأولى نقل حركات الهمزات إلى السواكن قبلها، فتقرأ: ردا، ءالان، عادا لولى، إلا أن قالون قرأ الأخيرة بهمز الواو: عادا لؤلى، وعند البدء بها له ثلاثة أوجه: لولى/ألولى/الأولى، والمقدم الوجه الثالث، فيكتب في الهامش: النقل فيها وفاقا لورش، وفي: عادا الأولى له همز الواو خلافا لورش، قال الناظم:

ونقـــلوا لنافع مـــنقولا
ردا وآلان وعـــادا الأولى
وهمزوا الواو لقالون لدى
نقلهم في الوصل أو في الابتدا
لكن بدأه له بالأصـــل
أولى من ابتدائه بالنقل

ج–وفي لفظ: بيوت كسر قالون الباء، فيكتب في الهامش: كسر قالون الباء في بيوت مطلقا إذا كانت جمعا سواء كانت نكرة أو معرفة، مضافة أو منقطعة عن الإضافة، قال الناظم:

وفي بيوت والبيوت الباء
قرأها بالكسر حيث جاءا

4– إذا أتم الختمة الثانية برواية قالون، يكون الطالب قد حصل قراءة نافع.

5– يجرى امتحان للطالب يركز له فيه على ذكر الخلافات بين الروايتين، وبذلك يحكم له بضبط القراءة وإتقانها.

ملاحظة:

ومما ينبغي التنبيه إليه ألا يعتمد في تحصيل رواية قالون على مصحف قالون، لأنه لن يقف على الخلافات الموجودة بين الروايتين.

والطريقة نفسها تتبع بالنسبة لمن كانت روايته الأم رواية قالون، وهذا يخص إخواننا الليبيين والتونسيين.

الخاتمة:

وبهذه الكلمات المختصرة، نكون قد أتينا على آخر نقطة في هذا البحث المتواضع، نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، والقبول والرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ملاحظة: للموضوع هوامش